استفتاء الآداب

رؤيا ممدودة نحو العام ٢٠٠٠؟

إعداد د. وفيق رؤوف

بمنأى عن الانبهار الانفعالي تجاه حضارة الغرب المعاصرة، سواء عن طريق المعايشة والاحتكاك داخل الزمكان الحضاري، أو عن طريق الوسائل الناقلة لهذه الحضارة، تكون المواجهة المعقولة، وبعيداً عن مركبات الإحساس بالضعف والنقص.

إذاً، الأزمة واردة، رضينا أم لم نرض، بين الحضارة وذويها من جهة وبيننا، نحن العرب، من جهة أخرى.

لكن يظل ثمة ذلك الفارق بين الذي يتعامل مع معطيات الحضارة الغربية - يومياً - على الطبيعة، والذي يتعامل معها على غير الطبيعة!.

لهذا كان هذا التحاور/المحاولة، بالنسبة للحالة الأولى. بلغة أخرى: بالنسبة لأولئك الذين وجدوا داخل الزمكان الحضاري الغربي.

لكن.. من نحن؟ ما الحضارة؟

نحن، ببساطة موضوعية، الأمة العربية. وأمّا الحضارة فهي التدرج في النمو ثم التطور الذي أدرك أقصاه اليوم في الغرب.

أين نحن من هذه الحضارة؟ وهل كهذه حضارة ديمومة لا تموت؟

لا نغالي إذا أوردنا الإجابة نفياً. فالحضارة - ومنها حضارة الغرب المعاصرة - غير باقية خلودياً، بل من قال بأنها - رغم المظاهر الأخاذة - غير آيلة إلى التفكك والموت: (إشبنغلر و.... توينبي) لتظهر ولادتها من جديد فوق بقعة أخرى من كوكبنا الأرضي. أجل.. ثمة دليل على هذه الرؤية بما آلت إليه الحضارة العربية الإسلامية في الأمس البعيد - القريب!.

تساؤل آخر: هل الأمة العربية، بوضعها الحاضر، بصدد أزمة تطور حضاري فعلاً؟ (مؤتمر جامعة الكويت عام ١٩٧٤).

نرتأي، تفضيلاً، صياغة أخرى: أزمة تراجع حضاري. السبب بسيط وهو أنّ الأمة العربية أمة غير مقطوعة حضارياً، بل أدركها الموت الحضاري على مقياس منظور (الدورة الحضارية). إذاً، نحن نشهد تراجعاً حضارياً حسب، حيث سبق أن عشنا أزمة «التطور الحضاري» قبل موت الحضارة عندنا، وبعد موتها شهدنا ونشهد تراجعاً حضارياً منذ سقوط بغداد سنة ١٢٥٨. وهكذا تتحول موضوعة الأزمة - كما نعتقد - من أزمة التطور الحضاري العربي، إلى أزمة التراجع الحضاري العربي.

وحتى مفهوم «التخلف الحضاري» يحتمل قدراً لا مجال لإنكاره من التجنّي على المنظور المنصف المجرد!.

لكن.. ماذا عن ردّة الفعل تجاه هذا التراجع الحضاري عربياً، قبالة الوضع الحضاري غربياً؟ لا نأتي بجديد في إيراد مجاميع ثلاث عبرْ ردّة الفعل هذه:

أولاً: عرب يغتذون من أمجاد السلف الحضاري، مكتفين بإدارة ظهورهم للوضع الحضاري الغربي المعاصر.

ثانياً: عرب مأخوذون بالانبهار الانفعالي لجمل الوضع الحضاري الغربي، لكنهم مكتفون أيضاً بإدارة ظهورهم لكل المعطى الحضاري العربي الإسلامي، على اعتبار أنه من ذكرى الزمن الغابر!.

ثالثاً: وعرب يتوسلون الموضوعية بين الفئتين.

لكن المسألة قد تبتعد اليوم شيئاً ما عن هذه المركزية في التفكير، حيث منذ زمن ليس بالقصير وأوساط المثقفين العرب تتداول - وأحياناً بحدة - الشرائح التخصيصية للحضارة. بتعبير آخر: ما ينبغي أن يُستمد من حضارة الغرب وما ينبغي أن يُتجاهل أو يُترك.

أي أن ثمة أفضلية لشريحة حضارية على أخرى. وفي حدّي الحضارة الثنائي: علوم التكنولوجيا والعلوم الإنسانية. إلى أيهما يكون أو يجب أن يكون التوجُّه؟.

نحن أمة «متخلفة» حضارياً. يقول البعض من المعنيين

والمثقفين العرب. ما شأننا، والحالة هذه بعلوم كالسوسيولوجيا والتاريخ والآداب.. إلخ؟!.

نحن بحاجة - يتابع هذا البعض - إلى نهضة تقنيّة، وما تبقّى مُعتَبر من الثانويات!!.

يردّ فريق آخر على هذا الرأي - الرؤية، بأنّ العلوم الإنسانية بشتى فروعها لا تقل شأناً عن أخواتها في العلوم المحض تقنية، بل وينكرون عنصر الانتقاص من شأنها.

بينما ينبري فريق ثالث محاولاً بموضوعية إيجاد التوافق والتجانس بين شطري المعادلة، حيث التزاوج المنطقي الذي لا ينفصم بين العلوم.. تقنية أو إنسانية.

وهكذا توجّهنا بسؤال محوري، في شقّيه، الى ثلاثة من المثقفين العرب الذين احتكوا بحضارة الغرب عن طريق المعايشة والمعاناة اليومية لسنوات و.. كانت رؤاهم التي آثرنا عدم التدخل في سياقها، كي تأتي فكرة قائمة بذاتها، مُفصحة عن نفسها بتام الحرية.

سؤال:

.. والعرب على مشارف نهايات القرن العشرين، هل تعتبر هذه الحقبة الزمنية تاريخاً استثنائياً فاصلاً وذا فرادة في حياة الأمة العربية على ضوء المعطيات الحضارية السائدة في الغرب؟.

والوضع الحضاري بجدّيْه: علوم التكنولوجيا والعلوم الإنسانية... على أيهما يجب التركيز وإعطاء الأولوية؟ أم أنك ترى بأنّ أحدهما لا يستغني عن الآخر. بتعبير أوضح، أنهما متجانسان في معادلة تكميلية واحدة؟. وكانت الأجوبة:

١ - أحمد محساس... (جزائري).. عضو في المكتب السياسي لحزب جبهة التحرير ومجلس الثورة سابقاً، وزير سابق للزراعة والإصلاح الزراعي:

نعم ثمة خصوصية. بإنصاف، الأمة العربية أنجزت الكثير في طريق النهضة والتطور. هذا طبيعي، نظراً لإمكاناتها البشرية ووزنها الحضاري في التاريخ، ناهيك بإمكاناتها المادية. هذا الإنجاز النهضوي أدخل تغييراً واضحاً على معادلة توازن القوى في العالم، وسينتقل الوضع إلى الأحسن في حالة توفر بعض الشروط لتجديد أو استحداث استراتيجية. هذا بالتالي، يتطلب توحيد الأهداف السياسية والقومية مما سيدعم، بالضرورة، العامل النهضوي. هذا جانب إيجابي ممّا هو قائم ومما يجب أن يقوم.

من جهة أخرى: الحقبة الزمنية التي تعيشها الأمة العربية ذات خصوصية حاضراً وفي المستقبل المنظور، كون هذه الحقبة تفرز صراعات عالمية من أجل التسلط أو (الهيمنة) HEGEMONIE «الكبار» على «الصغار»، بمعنى الأبوّة التي يمارسها القوي على الضعيف.

هذه الرؤية الواقعية هي السائدة في الوقت الحاضر، ومن الطبيعي أن تفرز هذه الحال وضعاً يحول دون التطور الاستقلالي المحض، والمبني على الفائدة القومية. هذه الهيمنية تحرّف أو تحاول أن تحرف الإرادة السياسية والقومية للأمة العربية. لكنها - الهيمنية - تحاول أن تدعم نفسها بطروحات علمية وتاريخية في ميادين شتى: الإقليمية - بعث نعرات عرقية للأقليات - التشكيك في طاقة التراث القومي على العطاء - التشكيك في قدرة الأمة على التصدي لمشاكلها، بمعنى آخر استلاب عامل المبادرة منها.

إنّ هذا الطغيان - الهيمني، قد حقق - للأسف - الكثير من مواقع النجاح، بارتكازه على أنظمة أو شرائح اجتماعية في جوانب من الخارطة العربية، هذه الأنظمة أو الشرائح الاجتماعية لا دور رئيسياً لها في مسألة تيقيظ الجماهير التي تعاني من وضع يكاد يمنعها من الارتقاء الشرعي إلى مستوى التعادلية الحضارية.

ثمة توفر لشروط هذا الارتقاء والتساوي: الطاقة البشرية - الامتداد الجيوبوليتيكي - التعاضد النفسي والتاريخي (اللغة والدين والمصير). خصوصية الشخصية الحضارية (العربية الإسلامية) - الطاقة المادية (البترول وسواه).

إنّ النفوذ الأجنبي المرئي والخفي، يشغل الأوضاع الداخلية العربية بصراعات مختلفة في الأساس (لبنان، الصحراء الغربية، اليمن، الظاهرة الساداتية) بتعبير آخر إنّ الشرط النهضوي متوفر عند العرب، لكن هذه الموانع المفتعلة تتصدى، عدوانياً، للحؤول دون إنضاج هذا الشرط.

انطلاقاً من هذه الرؤية، يمكن القول بأن هذه الحقبة الزمنية ذات خصوصية وليست عابرة في تاريخ الأمة العربية.

يبدو لي أنّ ثمة تخوفاً واضحاً من جانب حضارة الغرب من نهوض عربي جديد ومرتقب.

طبعاً، الحضارة الغربية بهيكليتها القائمة (النظام السياسي الاجتماعي ومؤسساته المختلفة) تتحسس من قراءة التاريخ القريب بأنّ العرب ليست أمة مقطوعة حضارياً، بالعكس فإن حضارتها أصيلة ومطعمة بعوامل البقاء بدليل اجتياحها الإنساني الذي أوصلها إلى أقاصي العالم.

الشق الثاني من السؤال، أولاً ما هي التقنية وما تعريفها؟

هي مجموعة حركات مُستمرة، تجعل المادة الأولية أو المادة المهيأة للتصنيع تتحول إلى عامل إنتاجي متكامل، حيث تتحول في النتيجة إلى بضاعة أو خدمات.

إنّ التقنية الصناعية متوفرة فيها كل الحركات (الأساسية والملحقات) ضرورية لـ:

١ - الإفراز الفكري. ٢ - البناء. ٣ - الوظيفية. ٤ - الشرط الاستمراري للإنتاج.

وهنا لا نستطيع فصل العامل الفكري الإنساني عن العامل التصنيعي الإنتاجي.

إن التقنية كموضوعة، ليس طرحها بجديد، إنما قد دخلت ميدان الصراع البشري من خلال توفرها على عنصر الآيديولوجية. بمعنى أن تقنية الغرب مُطعّمة بعنصر آيديولوجي من خلال النظامين المتنافسين (الرأسمالي والشيوعي).

إن مسألة التقنية، بالتالي، مرتبطة بمسألة التنمية ليس بالنسبة للعرب فحسب، بل بالنسبة لبلدان العالم الثالث كما هو معروف.

إنّ عملية «بيع» التقنية وتحت شروط معينة هي عملية تجارية بحتة (بائع ومشترٍ)، وفي غفلة من المشتري، يمكن أن تنقلب عملية البيع هذه إلى طابع استعبادي واستغلالي. بمعنى آخر، إعادة سحب فوائد الثروة القومية من جانب البائع الذي هو بحكم مركزه الحضاري القوي يجب التعامل معه بحذر ودراسة معمقة وبُعد نظر للمستقبل بمدياته القريبة والبعيدة، وهنا يبرز الدور الإيجابي للعلوم الإنسانية، حيث من ضرورات التقنية المُشتراة، تجنيد الطاقة الفكرية بغية التعامل المناسب مع هذه التقنية.

★ ★ ★

في رأيي أنّ الأهمية تكون للقدرة التي يلم بها الإنسان العربي وبحقائق المجتمع الذي ينتمي إليه. ودور العلوم الإنسانية (تاريخ سوسيولوجيا، آداب، والملحقات) غير قابل للإنكار بصدد تعميق عناصر التعارف بين الإنسان ومجتمعه.

وهنا يبرز عامل «المنهج» في مدى قابلية التطبيق الإيجابي لهذه العلوم على الواقع الاجتماعي العربي القائم.

بتعبير آخر، التعامل مع البحث على ضوء المعطيات السائدة في الواقع، بالإضافة إلى أنّ هذه العلوم تحمل أصداء آيديولوجية خاصة ومختلفة (القومية العربية، الإسلام، الماركسية) في هذا المجال، أرى بتعددية الرأي في البحث (التسامح الديمقراطي). إنّ في تعددية الرأي كفالة لا تقبل الإلغاء بالنسبة لظهور الأفكار المناسبة في مسيرة المجتمع ونهضته.

بلغة ثانية: اعتماد الإرهاب الفكري والآيديولوجي غير نافع، ناهيك بمضاره كما أثبتت الأحداث والوقائع منذ فجر التاريخ وإلى الآن.

هنا ندخل في جوهر الموضوع، بمعنى أنه إذا كانت هذه العلوم الإنسانية مزدهرة وفي وضع صحي جيد فإنها ستلعب حتماً دورها المطلوب في استيعاب الجانب الآخر من العلوم. أقصد التقنية المستوردة، وبموضوعية شديدة والتعامل معها على أساس إحدى ضرورات العصر.

وإجابة تركيزية على السؤال: إنّ جانبي العلوم (التقني والإنساني) مترابطان وغير قابلين للتجزئة، حيث أنّ تراجع العلوم الإنسانية يؤدي بالضرورة إلى حالة من الارتباك والفوضى في عملية استيعاب التقنية، لأنّ التنوّر الاجتماعي، كما هو معروف، لا يتم باستيراد التقنية كمادة محضة، ونسبة تفشّي الجهل في مجتمعاتنا العربية تضرب أرقاماً قياسية على ضوء إحصاءات اليونسكو مثلاً.

الازدهار عملية مترابطة كما جسد الإنسان فيزيقياً وروحياً. إنها ثنائية، فعلاً، لكنها ثنائية متوحدة وغير قابلة للفصل.

دور العلوم الإنسانية هنا كغذاء روحي لا غنى للتقنية نفسها عنه، بل وأكثر فإنّ التقنية ينبغي أن تستمد ديمومتها من العلوم الإنسانية، وإلا طغى الجانب المادي وانقلب الإنسان كأثمن رأسمال في ظل هذا الطغيان إلى امتداد ميكانيكي لهذه التقنية.

ختاماً، لا أبالغ إذا قلت بأنّ التقنية في مجملها عبارة عن مجمّع ثقافي/تراثي ومن إحدى المحصلات الحضارية.

٢ - أمّا الشاعر العراقي **عبد الوهاب البياتي** الذي أقام في الاتحاد السوفياتي وأوروبا منذ العام ١٩٥٩ فيرى أننا:

لا نستطيع أن نعتبر هذه الحقبة، حقبة عابرة، بل إنها تتميز بفرادة وخصوصية، ولكننا قبل أن نؤكد ذلك لا بد لنا من العودة إلى تفاصيل علاقات الشرق العربي بأوروبا ومعرفة تأثير الفكر الأوروبي من فلسفة وآداب وثقافة وعلوم وتكنولوجيا، فنلاحظ الآتي:

أولاً: إنّ تأثير العلوم الانسانية الأوروبية على الثقافة العربية، ظل تأثيراً إنتقائياً، وبالرغم من إنتقائيته فإنه لم يلعب دوراً بارزاً وكبيراً من ناحية تطور الثقافة العربية، كمّاً ونوعاً بل إنّ هناك مقاومة لهذا الإنتقاء، سواء كانت بقصد أو بدون قصد. أي أنّ العرب بالرغم من أخذهم للثقافة الأوروبية عن طريق الإنتقاء، فإنها كانت وما تزال لا تلعب دوراً مهماً في رؤيتهم إلى العالم وإلى انعكاس ذلك في سلوكهم الثقافي والحياتي.

ثانياً: هناك تيارات رفض لكافة ألوان الثقافة الأوروبية. أي أن هناك رفضاً مطلقاً من بعض الفئات الثقافية في وطننا العربي للثقافة الغربية جملة وتفصيلاً، وتتجلى بالرجوع إلى التراث وحده، خاصة الجوانب السلبية منه والتقوقع فيه، وهذا ما تجلى بالدعوات السياسية لبعض التيارات الدينية، هذا بالرغم من تناقض هذه التيارات الدينية السياسية مع نفسها.

ثالثاً: هناك تيار إنتقائي يميني طبقي يأخذ ما يعزز وجهة نظره من ثقافة الغرب لكن دون أن يتمثّل ما يأخذه.

رابعاً: هناك تيار ثوري للثقافة العربية، ويمكن أن نصفه بأنه يتراوح ما بين التطابق والانتقائية، وهذا التيار أيضاً لا يزال يعاني نفس سلبيات التيارات الأخرى.

خامساً: هناك تيار آخر لا يظهر كتيار ولكنه يظهر في أعمال بعض المبدعين العرب من روائيين وشعراء وباحثين وكتّاب يؤكد على ضرورة قومية الأدب وإنسانيته، حيث إنّ التواصل والتسامي بين الثقافات الانسانية أمر ضروري للنهوض بالثقافة الوطنية، وقد استطاع ممثلو هذا الاتجاه بالرغم من قلّتهم أن يلتقوا بأشياء كثيرة من التيارات الانسانية للثقافة الأوروبية.

بالنسبة للشق الثاني من السؤال، أتفق مع وجهة النظر الأخيرة بالأخذ بطرف العلوم الانسانية جنباً إلى جنب مع الأخذ بالعلوم التكنولوجية والعلوم الأخرى، ذلك بأنّ التقدم المادي والروحي لا ينفصل أحدهما عن الآخر، بل إنهما يتحدان

ويحلّ كل منهما بالآخر، وفي اعتقادي أنّ الأخذ بجانب العلوم الانسانية وحده لا يؤدي إلى التقدم بها. أي أنّ إنماء الجانب الروح عند الانسان وحده لا يمكن أن يؤتي ثماره أو ينضج نضوجاً كليّاً دون الأخذ بالتقنية والعلوم عامة وهكذا الأمر.. أيْ أنّ العرب بخاصة وهم مُقبلون على بدء نهضتهم أو حضارتهم، يمكنهم الأخذ بالتيارين معاً لحل مشكلة الثنائية القائمة الآن في أوربا نفسها وفي كثير من بلدان العالم الأخرى، وباستطاعتهم عن طريق هذه الرؤيا الجديدة أن يقدّموا تجربة فريدة جديدة من نوعها إلى البشرية.

والدليل أنه بقفزة التكنولوجيا على الجانب الآخر (العلوم الانسانية) قد صير إلى تفشي العدمية والميكانيكية في نمط الحياة الغربية المعاصرة، وكل هذا جاء على حساب الجانب الروحي.

كما أنّ قوانين عصرنا لا تسمح بالأخذ بجانب العلوم الانسانية وحدها كما كان الأمر في العصور القديمة لكون أنّ جزءاً كبيراً لا يستهان به من البشرية قد أخذ بالجانب التكنولوجي.

إنّ الأخذ بأحد هذين الجانبين فقط سيؤدي إلى عزلة مدنية مدينة وحضارية وفكرية وإجتماعية وثقافية وفقدان لغة التخاطب بين البشر في الأزمنة الحديثة والقادمة وإلى تفشي الشوفينية والفاشية والتعصب العرقي والقومي والديني.

* * *

وأما الناقد المصري د. غالي شكري، استاذ النقد المساعد بجامعة السوربون (باريس ٣) فيقول:

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، والعالم يمر بمرحلة كيفية جديدة في تاريخه المتصل، وهي مرحلة تتفوق بانجازاتها على العشرين قرناً السابقة من هذا التاريخ.

هذه المرحلة الجديدة كيفياً لا زالت، جوهرياً مستمرة، وستظل في تقديري قائمة إلى ما بعد العام ٢٠٠٠ ولكن هذا لا يمنع مطلقاً أن تتوالى المتغيرات، على كافة الاصعدة، خاصة العلمية والتكنولوجية.. مما سيترتب عليه بالضرورة تغيرات استراتيجية في خريطة العالم.

وبالرغم من كافة مظاهر التخلف الذي يعاني منه العرب، بل وبعض ظواهر السقوط التي بلغت ذروتها في معاهدة الصلح المنفرد بين مصر واسرائيل.. فانني أعتقد بأن هذه الظواهر وتلك المظاهر لا تمثل إلاّ جانباً واحداً من الواقع العربي، يجدر بنا ألاّ نراه في حالة ستاتيكية.

إن دينامية الرؤية السوسيو - ثقافية للمجتمعات العربية، تؤدي بنا إلى اكتشاف عوامل نمو كامنة على صعيد البنى الاقتصادية والاجتماعية، وبالرغم من كافة الاحباطات وفي مقدمتها ارتفاع نسبة الأمية وانخفاض مستوى الوعي، بالإضافة إلى الضغوط العلوية لقرارات التطور، وغياب الديمقراطية، فان تفاعلات الواقع العربي مع تغيرات العصر، من شأنها تثبيت عوامل النمو في اتجاهين لا ثالث لهما:

- التنمية الاقتصادية - الاجتماعية الجذرية والشاملة في إطار صيغة ديموقراطية تناسب معدلات النمو وهياكله.. وبالتالي الانفلات التام من ربقة الاحتكارات الأجنبية. ولن يتم ذلك إلاّ بتنمية عربية.
- وإما تبعيّة كاملة لمجتمع الانتاج والاستهلاك الغربي بانماطه المتطورة، بحيث نعود من جديد مجرد «سوق» للسلع المصنفة في الخارج، و «حقول» للخامات الطبيعية والايدي العاملة الرخيصة.. دون الحاجة إلى «جيوش احتلال» تخدش حياء رايات الاستقلال المزيف.

اننا في مفترق طرق حاسم في السنوات القليلة المقبلة، فالصراع على السطح، أو ما يسمى خطأ بأزمة الشرق الأوسط، هو مجرد عنوان لصراع أعمق في بنية المجتمعات العربية الاساسية.

الدعوة الى «علمنة» العرب، بمعنى تحويل اهتماماتهم الحيوية إلى الاستفادة من العلوم التجريبية وحدها، وصرف النظر عن العلوم الانسانية «المتخمين بها» على حد تعبير بعضهم.. هي دعوة قديمة تعود إلى شبلي شميل وسلامة موسى. وهي دعوة خاطئة شكلاً ومضموناً.

على صعيد الشكل، ليست هناك آلة بلا عقل. الماكينة والفكر مقولة واحدة. والفصل بين الظاهرتين غير علمي. بالإضافة الى أنه ليس صحيحاً أننا «متخمون» بالعلوم الانسانية، فالاعتماد على تراثنا القومي وحده الذي كانت له بدوره تجليات في العلوم الطبيعية حينذاك، هو اعتماد يلغي الحركة من الزمان. أي انه يلغي العقل والتطور الانساني ذاته.

على صعيد المضمون يؤدي هذه المفهوم عملياً، وقد أدّى بالفعل، لأن نصبح مستهلكين للحضارة لا مشاركين فيها. ومن النتائج السوسيو - ثقافية لذلك، مرض الانفصام الجماعي بين الانتاج (لغيرنا) والاستهلاك (من جانبنا) لكل ما هو السيارة والتلفزيون وأجهزة التكييف بينما مستوى الوعي والقيم والسلوك يربض عند حدود المحراث والساقية.

من البديهي اننا نحتاج للعلوم الطبيعية والعلوم الانسانية معاً وجنباً إلى جنب، بشرط واحد جوهري ان يشارك ذلك تنمية اقتصادية وتنمية اجتماعية وتنمية ثقافية، تحدد مضمون احتياجاتنا واسلوبه.

وهذا التحديد الذي لا نخضع فيه للغرب ولا للشمال، بل لواقعنا واكتشاف قوانينه المضمرة داخله وخارجه على حد سواء. وهذا هو الإبداع العربي وممكناته في الحاضر والمستقبل.